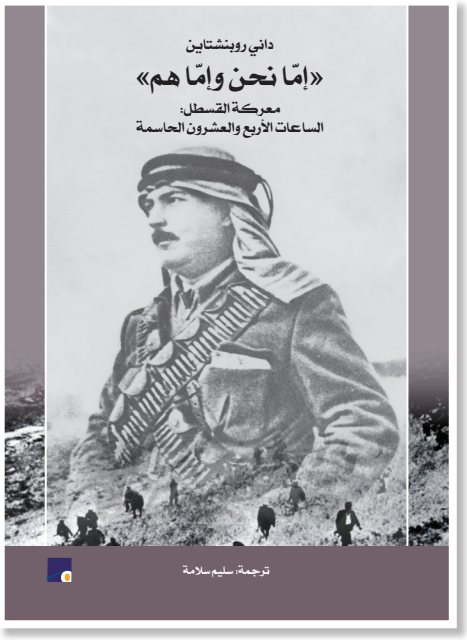

بلال محمد شلش*

"سنقاتل إلى النهاية"

الكتاب: إما نحن وإما هم- معركة القسطل: الساعات الأربع والعشرون الحاسمة،
الكاتب: داني روبنشتاين، (٢٠١٧)
رام الله: «مدار» المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية،
سنة إصدار الترجمة العربية: ٢٠٢٠
الصفحات: ٣٨٤

«إما نحن وإما هم»، كلمات صرح بها عبد القادر الحسيني في حديث له نُشر في صحيفة النداء المصرية في ٦ كانون الثاني ١٩٤٨، أُعيد إحيائها في عام ٢٠١٧ لتصير العنوان الرئيس لكتاب الصحافي داني روبنشتاين، الذي ترجمه إلى العربية مؤخرًا سليم سلامة، وصدر تحت عنوان **إما نحن وإما هم- معركة القسطل: الساعات الأربع والعشرون الحاسمة** عن مدار، المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية. وينقسم الكتاب إلى مقدمة، وخاتمة، يتخللهما خمسة عشر فصلًا، ينتقل فيها روبنشتاين بلغة حكاء جميلة بين أمكنة وأزمنة وشخصيات مختلفة.

تحدث روبنشتاين مبررًا تأليف كتابه في ضوء اهتمام عشرات النصوص العبرية السابقة واللاحقة بالتأريخ لمعركة القسطل وقائدها عبد القادر الحسيني،[1] بأن الدافع الأساسي وراءه كان رغبته في استغلال المبنى التقليدي للمجتمع الفلسطيني في تقصي حقائق تاريخية واستيضاحها،[2] المبنى الذي تعرّف إليه من وحي

* مرشح دكتوراه علوم اجتماعية في جامعة بيرزيت، باحث في المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات.

لكن روبنشتاين، وبفعل واعٍ كما يبدو، اقتطع سردية الريماوي، فأخرج سردية مبتورة، أبرزت لحظة من لحظات الصراع العربي - الصهيوني من دون بيان سياقها، وقدمت قراءة للمعركة، مغايرة لمجمل القراءات العربية التي اقتبس منها.

عمله الصحافي، واطلاعه على تجربة الدكتور شريف كناعنة في توثيقه شهداء مجزرة دير ياسين، فحاول روبنشتاين الحكاء، أن يؤسس لحكايته التي قدمها عن معركة القسطل، بوصفها المعركة الحاسمة في الحرب، وقائدها الشهيد، بوصفه القائد الفلسطيني الأبرز فيها، بالاعتماد على مصادر عربية مختلفة، خصوصًا الروايات الشفوية التي تقصاها خلال نشاطه الصحافي في بقية فلسطين المحتلة عام ١٩٦٧. وكما يبدو من الحكايات التي سجلها روبنشتاين، فإنه نجح في تتبع مسارات مختلفة، لم يكن من الممكن تقصيها بغير هذا الاستغلال، وأثبت روبنشتاين روايات شفوية مهمة في توثيق تجربة الجهاد المقدس عمومًا، وتجارب بعض جنوده وكوادره، وكذلك في التأريخ لمعركة القسطل. ولعل هذا يعد الإنجاز الأبرز للنص، إذ يتحول بما تضمنه من روايات شفوية، اندثرت في مجملها بوفاة أصحابها، إلى خزان ذاكرة، وخزان لمادة أولية مهمة للبناء عليها مستقبلًا.

نص روبنشتاين من هذه الزاوية، غير بعيد عن نصوص عبرية أخرى، فبعد هزيمة حزيران ١٩٦٧، حرص الإعلام العبري على تغطية واسعة لخبر بقية فلسطين المحتلة حديثًا. ومنذ لحظة الهزيمة الأولى، باشرت الصحافة العبرية نشر مقابلات دورية مع شخصيات فلسطينية مختلفة، ممثلة لنخب فلسطين وعوامها. وكان الصحافيون أول من اهتم بالتأريخ للحدث الراهن، اعتمادًا على تحقيقاتهم الصحافية، وقدرتهم على الوصول إلى مصادر أولية مختلفة، عربية وعبرية، ولعل نص شبتاي تيفت «קללת הברכה [البركة الملعونة]» المنشور في عام ١٩٦٩ من أوائل النصوص العبرية التي أرّخت للحظة احتلال حزيران ١٩٦٧ في المنطقة الوسطى، وكذلك لبواكير الحكم العسكري فيها، لكن كتاب روبنشتاين تمايز عن هذا الصنف من الأدبيات، باهتمامه بلحظة تاريخية بعيدة نسبيًا، وإن بقي أثرها حاضرًا كما سيبيّن كتابه.

اقتطاع سردية/ سرديات عربية

«بنظرة إلى الوراء، يبدو أنه في ذلك اليوم نفسه الذي انقلبت فيه موازين المعركة، وحُسم مصير البلاد، ترسخت أيضًا صورة عبد القادر الفريدة في الذاكرة الوطنية الفلسطينية».[٣]

«انا بحكي لك كلمة صغيرة مشان انت
تقيّدها، بس مات عبد القادر سقطت
فلسطين.. خلص.»[٤]

تحضر المادة العربية في الكتاب بشكل كبير، فإضافة إلى الروايات الشفوية التي جمعها، ينقل روبنشتاين اقتباسات مطولة من نصوص عربية أخرى، مثل مذكرات بهجت أبو غربية، **في خضم النضال العربي الفلسطيني**، وسيرة ذو الكفل عبد اللطيف، **مذكراتي قصة كفاحي من الثورة الفلسطينية الكبرى إلى حرب ١٩٤٨**. وبعيدًا عن حضور هذه المادة كجزء من حكاية الكتاب التي يحاول روبنشتاين حبكها مع المادة العبرية، فإنه يمكن ملاحظة تأثر الكتاب الاستثنائي بمخطوط قاسم الريماوي عن الشهيد الحسيني، من خلال نص وسيط هو **فلسطين الأم وابنها البار عبد القادر الحسيني** لعيسى خليل محسن. وهو تأثر جلي في بناء فصول الكتاب المختلفة، وكذلك في السردية العامة المقدَّمة.

لكن روبنشتاين، وبفعل واعٍ كما يبدو، اقتطع سردية الريماوي، فأخرج سردية مبتورة، أبرزت لحظة من لحظات الصراع العربي - الصهيوني من دون بيان سياقها، وقدمت قراءة للمعركة، مغايرة لمجمل القراءات العربية التي اقتبس منها، فعلى الرغم من وجود نصوص وروايات شفوية عربية تأثرت بالهزيمة الكبرى، فقرأت الحرب من خلال منظورها، ومحت جزءًا أساسيًا من إرث المعارك، كحديث المقاتل شاكر ياسين مطر المدون سابقًا، فإنه وجد حرصًا دائمًا

إضافة إلى الاقتطاع في النص الذي أخرج المعركة من سياقها العام، فإن روبنشتاين تجاوز في حكايته أي نقد للمصادر التاريخية، فتساوت لديه المصادر التاريخية المختلفة، وإن تناقضت، وسهل الاتهام - كاتهام عائلة مطر - وهذا أوقع النص في الكثير من الإشكالات والأخطاء التاريخية.

على تقديم معركة القسطل بوصفها جزءًا من حرب طويلة، متجاوزة للحظة حرب ١٩٤٧-١٩٤٩.

لذا، حرص قاسم الريماوي - كما حرص أبو غربية وآخرون - في مخطوطه عن الشهيد الحسيني، على التقديم لتأريخه لتأسيس التنظيم السري الجديد للشهيد عبد القادر الحسيني بعد عودته إلى القاهرة في شباط ١٩٤٦، بحديث عن فعل المستعمر البريطاني في فلسطين وأثره في إخلاء فلسطين من السلاح العربي، وكذلك عن حالة البلاد الداخلية خلال الحرب العالمية الثانية وبعدها.[٥] كما حرص الريماوي على الإضاءة على هزيمة القسطل، رغم أثره الكبير، خصوصًا على قوة الجهاد المقدس، بوصفها هزيمة في معركة من معارك الحرب -التي القراءة التفصيلية لوقائعها أن لكل معركة فيها، تميزها وتمايزها عن المعارك الأخرى، وأن لكل مرحلة من مراحلها خصوصيتها- تلتها مباشرة انتصارات عربية أفشلت ثمار الانتصار الصهيوني في القسطل، كفشلهم في تحقيق أهداف عملية «نحشون» ثم العملية البديلة «يبوسي»، بعد هزيمتهم الساحقة في بدّو، وكذلك هزائمهم في معارك الشيخ جراح وباب الواد واللطرون، وهي الهزائم التي أفرغت الانتصار الصوري لعمليات «نحشون».[٦]

النقد الغائب

إضافة إلى الاقتطاع في النص الذي أخرج المعركة من سياقها العام، فإن روبنشتاين تجاوز في حكايته أي نقد للمصادر التاريخية، فتساوت لديه المصادر التاريخية المختلفة، وإن تناقضت، وسهل الاتهام - كاتهام عائلة مطر[٧] - وهذا أوقع النص في الكثير من الإشكالات والأخطاء التاريخية،[٨] ولعل أبرزها القراءة المقدمة لدور اللجنة العسكرية العربية في المجهود الحربي في فلسطين، وكذلك الخلافات العربية البينية، سواءً أكانت خلافات فلسطينية - فلسطينية أشير إلى أنها امتداد لخلافات سابقة، أم خلافات فلسطينية - عربية، كخلاف الحاج أمين مع أركان اللجنة العسكرية العربية.

ورغم حقيقة هذه الخلافات، فإن قراءتها المتأخرة بعيون المهزومين،[٩] والمتأثرة بالوقائع المستجدة على الأرض بعد نهاية حرب ١٩٤٧-١٩٤٩، خصوصًا إنهاء المقاتل الفلسطيني،[١٠] أوقعت هذه القراءة في إشكالات كبيرة، وأبعدتها عن فهم التحولات التي أحدثتها الحرب، خصوصًا في مرحلتها الأولى،[١١] وأبرزت وجهة نظر متأخرة تشكلت بعد الهزيمة، واستذكرت دور اللجنة العسكرية العربية في ضوء ذلك. وكان قاسم الريماوي، في مخطوطه عن الشهيد الحسيني، أبرز من قدموا هذه القراءة، وإن تراجع عنها جزئيًا في نصوصه المتأخرة.[١٢]

صور منهوبة

تحضر في الكتاب، مجموعة من الصور المميزة التي استُخرجت في مجملها من أراشيف الاحتلال، ومنها الصور المنشورة في الصفحات ١٨٩، ٢١٠، ٢٨٣ والتي أشير إلى أن مصدرها: «يسرائيل نيتح، أرشيف بلماح، مخزون الصور». وهنا، لا بد من الإشارة أولا إلى أن التعليقات المرافقة للصور تعليقات غير دقيقة، فمثلًا لم يكن إبراهيم أبو دية حاضرًا في الصورة المنشورة في الصفحة ٢١٠ من الكتاب، ومن اعتقد المؤلف أنه قاسم الريماوي لم يكن إلا مالك الحسيني، أما قاسم الريماوي فهو الشخص الذي ظن المؤلف أنه كامل عريقات، وأما من ظنه الكاتب مرافق الحسيني عوض الترمسعاوي فهو كامل عريقات. أما الصورة المنشورة في الصفحة ٢٨٣ فلم تكن أثناء التوجه إلى القسطل، ولعل مصدر الإشكال في التعليقات، أن نيتح لم يكن صاحب الصور ليعرف من فيها، ويبين وقائع التقاطها، وإنما كان سارقاً مدعياً.

ومن غير تفصيل عن ادعاء وسرقة نيتح الذي روّجت له الكثير من المصادر الإعلامية العربية، فإن الصور المشار إليها التقطها المصور المقدسي خليل

رصاص، كما يؤكد قاسم الريماوي. ويشير الريماوي إلى أن الصور التقطت بناءً على طلب رصاص، بصفته مصورًا خاصًا لمجلة المصور المصرية، ونُشرت هذه الصور في المصور، وكذلك في بعض الصحف المصرية كالأهرام خلال شهور الحرب الأولى، قبل استشهاد الحسيني، كما أُعيد نشرها في مراحل مختلفة تالية لاستشهاده. ويشير الريماوي إلى أن الصور التُقطت في بلدة بديا، وهو ما أكدته القراءة المدققة في الصور المختلفة.[١٣]

الكتاب كنص مذكرات

قبل الختام، لا بد من الإشارة إلى قيمة إضافية للنص، فخلال الانتقالات المختلفة بين الأمكنة والأزمنة والأحداث، يحكي روبنشتاين جزءًا من مذكراته؛ مذكراته مع الأمكنة، وكذلك مع الشخوص. تحمل بعض هذه الذكريات قيمة استثنائية، خصوصًا حال تطرقها لقضايا تاريخية شائكة، لعل أبرزها حديثه عن مشاركته في تنفيذ قرار عوزي إسحق نركيس (١٩٢٥-١٩٩٧)، قائد المنطقة الوسطى في حرب حزيران ١٩٦٧، بنسف منازل قرية صوريف، تحقيقًا لثأر شخصي من هزيمتها السابقة لنركيس قائد غوش عتسيون.

في تاريخ حرب حزيران ١٩٦٧ ومعاركها على الجبهة الأردنية، الصادر في عام ٢٠١٧، تحدث الكتاب عن وصول القوات المقاتلة مساء يوم ٨ حزيران إلى صوريف المشهورة منذ معركة لامِد هي [الخمسة وثلاثين]. وبناءً على تعليمات صريحة من القائد العام، طردوا سكانها، ونسفوا حوالي ١٥ منزلاً.[١٤] لا يقدم النص أي معطيات إضافية عن قرار النسف هذا، ولماذا اقتصرت عملية النسف على عدد من المنازل، رغم صدور القرار بنسف منازل البلدة جميعًا.

وهذا ما تأتي ذكريات روبنشتاين لتوضيحه، فيقول: «وصلنا إلى صوريف في ساعات الصباح، عبر الشارع المتعرج الخارج من بيت أمّر. كانت القرية خالية. على الجبال المحيطة، كان سكان القرية المذعورون مختبئين في البساتين والمغاوِر. كانوا يراقبون من بعيد ما يجري تحتهم. وضعنا مواد متفجرة في البناية الأولى، الكبيرة، عند مدخل القرية. لحقت [بها أضرار] جسيمة. كان واضحًا أن تفجير جميع البيوت يحتاج إلى كميات هائلة من المتفجرات. بعد ساعة، انصرفنا من هناك. لم نستطع تنفيذ أمر قائد المنطقة الوسطى".[١٥]

ختامًا

حاولت هذه المراجعة أن تقدم قراءة نقدية، من غير إسراف في التمثيل، لكن لا بد في الختام من التأكيد على أهمية النص للقارئ المهتم بتأريخ حرب ١٩٤٧-١٩٤٩، وكذلك بالسير الذاتية لأبطال هذه الحرب ومقاتليها. ولعل هذا النص، خصوصًا مع إشكالياته الكثيرة، دافع لمزيد من الاهتمام في تراث هذه الحرب، والنبش في ركامها بحثًا عن تراث منسي أو مهمل أو متروك.

وفي الختام قال عبد القادر الحسيني: «سنقاتل إلى النهاية، وسيقاتل أبناؤنا واصدقاؤنا من بعدنا. فنحن مصممون على القتال، وإن كنا لا نرغب إلا في أن نعيش في سلام. غير أن الدول الكبرى تريد غير ذلك».[١٦]